

جسور التواصل مع الآخر الآسيوي في رواية الرفيقة سانغيام لسماويل محمد

The Bridge with the Asian Other in the Novel « Sangiam the Companion »
by Smail Mohamed

كريمة مدور¹، سميحة كلفالي²

Karima Meddour¹, Samiha Kelfali²

¹ مخبر وحدة البحث والتكوين في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة (الجزائر)،

karima.meddour@univ-biskra.dz

² مخبر وحدة البحث والتكوين في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة (الجزائر)،

samiha.kalfali@univ-biskra.dz

تاريخ النشر: 2025/05/28

تاريخ القبول: 2025/03/27

تاريخ الاستلام: 2024/05/19

الملخص:

يرصد هذا البحث العلاقة بين الأنا والآخر بأنماطها الجديدة -الأنا الجزائرية والآخر الآسيوي من خلال رواية "الرفيقة سانغيام"، للروائي الجزائري سماويل محمد، حيث تتجلى أسمى علاقات التعايش والحوار الحضاري، في ظل القيم والمبادئ الإنسانية المشتركة والظروف التاريخية التي ساهمت في مد جسور التواصل الأنا والآخر. كما يسعى البحث إلى كشف واقع الآخر الآسيوي المختلف وخصوصيته الثقافية كما أظهرته الرواية، والذي يشكل سمة فارقة للبلدان الآسيوية، إلا أن هذا لم يمنع الآخر من التعايش مع الأنا وتقبله إلى حد التماهي فيه. **كلمات مفتاحية:** الأنا، الآخر الآسيوي، الرفيقة سانغيام، الحوار الحضاري.

Abstract

This research shows the relationship between the self and the other with its new-patterns the Algerian- self and the Asian other through the novel "Sngiam the companion" by the Algerian writer Smail Mohamed. This novel shades the light at the highest symbiotic relationship and intercultural dialogue on the basis of the common human values and principles and the historical circumstances that contributed in extending the bridge of communication between the self and the other. Moreover, the study aims at revealing the reality of the Asian other, which is completely different, and its cultural privacy as it is shown in the novel. This constitutes the distinguishing feature for the Asian countries, however, it did not prevent the other from coexisting with the self and accepting it to the extent of identifying with it.

Keywords: the self, the Asian other, Sangiam the companion, intercultural dialogue.

المؤلف المرسل: كريمة مدور، الإيميل: om.iyyad.amer.dz@gmail.com

1. مقدمة :

كثيرة هي الأعمال الأدبية التي تجعلنا نسافر عبرها في رحلة خيالية، لتجسد لنا المواقف واللحظات الحياتية المؤثرة، حتى نستطيع أن تخيلها أو نعيشها واقعا آمنا، خصوصا تلك الأعمال التي تتسج حكاياتها من الواقع، فتحكي لنا عن أجمل قصص اللقاء والتعارف والتعايش بين الأنا والآخر. هذا الموضوع الذي صال وجال فيه كثير من الباحثين وتناولوه بالدراسة في النقد العربي المعاصر. غير أن أغلب الدراسات العربية الحديثة اختصرت الآخر في الغرب الأوروبي، ورصدت العلاقة المتوترة بينه وبين الأنا العربية، ومن الطبيعي أن يكون الغرب الأوروبي هو التيمة الرئيسية في تلك الدراسات، نظرا للتقارب الجغرافي والتاريخ الطويل من اللقاء والصراع بينه وبين الأنا العربية.

وبما أن الهوية مفهوم غير ثابت ومتغير، لأنه مفهوم دائم التشكل، فذلك مفهوم الآخر يظل قابلا للتغير والتبدل، خصوصا في ظل اختلاط العرب بغيرهم من القوميات. وسنرى تبعا لذلك الآخر يتغير في الرواية العربية. فنجد الآخر الإفريقي المسلم، والآخر الآسيوي إما الهندوسي أو البوذي، هذا الآخر الآسيوي الذي بدأ يظهر مؤخرا في الروايات العربية مثل رواية ساق البامبو للروائي الكويتي سعيد السنعوسي، ورواية "بعيدا إلى هنا للروائي الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل... وغيرها من الأعمال.

وعليه جاء هذا البحث ليستجلي طرق تمثيل الآخر الآسيوي في رواية الرفيقة سانغيام. للروائي الجزائري سماعيل محمد تحت عنوان "جسور التواصل مع الآخر الآسيوي في رواية الرفيقة سانغيام لـ محمد إسماعيل" محاولا الإجابة عن هذه التساؤلين: كيف تجسدت العلاقة بين الأنا الجزائري والآخر الآسيوي في رواية "الرفيقة سانغيام"؟ وهل يمكن أن تساهم الظروف التاريخية والمبادئ الأخلاقية والروحية المشتركة في خلق أرضية التحوار والتعايش بين الأنا والآخر؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هاته الدراسة ضمن محورين أساسيين هما: أولا: صورة الآخر الآسيوي في الرواية، ثانيا: التعايش بين الأنا الجزائري والآخر الآسيوي ومد جسور التواصل بينهما.

وسوف يكون المنهج المتبع في الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي للخروج بأبرز النتائج المتعلقة بعلاقة الأنا الجزائري بالآخر الآسيوي كما جسدهت الرواية وكذا الوقوف عند أهم القيم والأفكار المشكلة لكل طرف. بادئ ذي بدء، يتعين علينا أن نشير إلى المفهوم اللغوي والاصطلاحي للآخر، والربط بينهما معرفيا.

- الآخر لغة:

يعرف ابن منظور "الآخر" في معجمه لسان العرب بمعنى "غير"، كقولك رجل آخر، وثوب آخر"، وأصله أفعل من التأخر فلما اجتمعت همزتان في حرف واحد استقلنا، فأبدلت الثانية ألفا لسكونها، وانفتاح الأولى قبلها

(المصري، 2010، الصفحات 72-73) وجاء في تاج العروس للزبيدي أحد الشئيين بمعنى غير كقولك رجل آخر وثوب آخر، ... ثم صار بمعنى المغاير". (محمد بن محمد عبدالرزاق الحسيني، 1972، الصفحات 10-34)

وفي المعجم الوسيط يعني «أحد الشئيين ويكونان من جنس واحد... بمعنى غير... الآخر مقابل الأول، الأخرى: مؤنث الآخر". (مصطفى، 1989، الصفحات 8-9)

نستنتج من التعريفات السابقة أن الآخر يعني "المختلف المغاير الذي يمتلك مجموعة من السمات والخصائص المخالفة للذات، غير أن هذه التعاريف اللغوية لا تأتي على ذكر السمات الثقافية والحضارية التي تحدد هوية الآخر.

- الآخر اصطلاحاً:

تجدر الإشارة إلى أن موضوع الآخر من المواضيع التي استقطبت أقلام كثير من المبدعين والباحثين على حد سواء في العقود الأخيرة. خصوصاً في الدراسات ما بعد الكولونالية والدراسات الثقافية المعاصرة، إذ تداوله كبار الفلاسفة والمفكرين الغربيين على غرار سارتر/ فوكو/ لاكان/ وليغيناس. ويعني الآخر "كل ما هو غيري أي ما هو خارج نطاق الذات". (الخليل، 2016، صفحة 9)

أما مصطلح النجار وآخرون فيعرف الآخر بقوله "فرد أو جماعة لا يمكن تحديدهم إلا في ضوء مرجع هو الأنا، فإذا حددنا هوية الأنا كان الآخر فرداً أو جماعة يحكم علاقته بالأنا عامل التمايز وهو تمايز إطاره الهوية أحياناً والإجراء في أحيان أخرى". (النجار، 2008، صفحة 51)

أي أن الآخر يرتبط وجوده بالأنا أو الذات، والتمايز والاختلاف شرط ضروري للتفريق بينهما، غير أن كل واحد منهما مكمل لغيره، فهما وجهان لعملة واحدة يحيل كل منهما على الآخر.

فمن خلال فهم الإنسان لذاته وتعريفه لها يكون فهمه واستخدامه لمذلول كلمة الآخر، فالإنسان قبل أن يرسم صورة للآخر، هو بحاجة إلى وعيه بذاته انطلاقاً مما يحمله من خصائص ثقافية واجتماعية ونفسية وفكرية وانتماءاته الدينية والعرقية. كل هذا يجعل المرء يعي ذاته وهويته. من هنا يبدأ في تصنيف كل من ينتم إلى الذات ومن يخالفها.

وجدير بالذكر أن مصطلح الآخر لا يحيل إلى من يخالفه ثقافياً أو عرقياً أو ديناً، بل يبدأ من الفرد إلى العائلة فالمجتمع، فالمحيط فالعرق فالدين إلى الجنس الإنساني، وقد يتجاوزه إلى غير الإنساني، وهكذا فزاوية تحديد الآخر تختلف باختلاف السياق الذي ترى منه الذات نفسها. (الحربي، 1441هـ، صفحة 162)

كما أن مفهوم الآخر لا يقتصر على المعنى المتداول بكونه مجموعة من السمات التي تميز جماعة بشرية عن غيرها بل يتعداه إلى "جانبه التهديدي، والتصنيفي، والإقصائي والاستبعادي". (الشودوي، 2008، صفحة 162)

وتأسيسا على ما سبق، سوف نقوم برصد تجليات الآخر الآسيوي في رواية الرفيقة سانغيام، وطبيعة العلاقة بينه وبين الأنا الجزائري. بعد أن نتعرف على ملخص الرواية.

- ملخص الرواية:

صدرت الطبعة الأولى للرواية عام 2019 عن دار ميم للنشر بالجزائر، للروائي الجزائري الشاب سماعيل محمد.

تطالعنا أحداث الرواية على قصة حب تجمع جنديا جزائريا مجندا تحت صفوف الجيش الفرنسي اسمه إدريس بفيتنامية اسمها سانغيام، التقيا في حرب الهند الصينية ضد فرنسا فأحبا بعضهما البعض، بنهاية الحرب يعود إدريس إلى وطنه، ثم تلتحق به سانغيام بعد تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي. اشتغل الكاتب في الرواية على تعدد الأصوات وتعدد الأبطال لبناء فاعلية النص ودلالاته، وأثث لها من الثقافة الأمازيغية والصحراوية. والديانات الإسلامية والبوذية والهندوسية وحتى المسيحية، في رسالة لحوار الحضارات والإيمان بالاختلاف والعيش متصالحين مع الآخر المختلف.

وقد حاول الكاتب عرض هذه النقاط في الرواية:

1-تقديم صورة مفصلة عن واقع الآخر الفيتنامي البوذي.

2-تقديم صورة الأنا الجزائري وواقعه المأساوي المزري وما يعانيه في ظل الاحتلال الفرنسي.

3-لقاء الأنا الجزائري "إدريس" بالآخر الفيتنامي "سانغيام" وميلاد قصة الحب الأسطورية بينهما.

4-عرض صور مختلفة للآخر الفيتنامي البوذي وكذا الفيتنامي الهندوسي.

وفي كل حالة من الحالات السابقة صوّر طرق التعايش والتآلف بين هاتين الأطراف المختلفة عن بعضها البعض. تجمعهم الإنسانية والقيم النبيلة من شفقة ورحمة واحترام وتقدير للآخر.

2. صورة الآخر الآسيوي في الرواية:

سننتبع في هذا المبحث طرق تجلي الآخر الآسيوي في الرواية، وذلك من خلال حضوره أولا في العنوان، ثم صورة الآخر الآسيوي سواء البوذي أم الهندوسي، بحيث يتم التطرق إلى أهم ما يميز الآخر وهو هويته الدينية

والثقافية، إذ تجلى هذا المكون في الرواية بشكل بارز، ثم نتطرق إلى المكان وعلاقته بالآخر وفيه سنرى كيف أنه انعكاس وتجسيد للآخر المختلف.

1.2. حضور الآخر في العنوان:

يحضر الآخر منذ الوهلة الأولى في العنوان، ويتجلى انفتاحه على الأنا الجزائري "إدريس" وكيف أصبح رفيقا له. فالكاتب يدخلنا في عالم الآخر مباشرة من خلال العتبة النصية الأولى -العنوان- في جملة صريحة "الرفيقة سانغيام" لا يعترها أي غموض "فسانغيام" اسم يشير إلى الآخر الآسيوي الفيتنامي المختلف اثنيا وعرقيا ودينيا. وبرغم كونه مختلفا إلا أنه رفيق للأنا الجزائري، ولقطة "الرفيقة" أو الرفيق تعني الكثير الرفق، المتصف بالرفق والحلم والأناة والرحمة، فالعنوان هنا يلخص لنا حال الأنا الجزائرية مع الآخر الآسيوي، وانسجامه وتعايشه معه، وهذا ما تجسده وقائع الرواية. أي كيف تماهى الأنا مع الآخر فأصبح رفيقا ومؤنسا له. في تناغم شديد معه، يزيل كل الفوارق والاختلافات الموجودة بينهما عرقا ودينا وثقافة، وعليه فهو يحمل دلالة صريحة في الاعتراف بالآخر والقبول به، وهو تجسيد للعلاقة الإنسانية المدهشة التي تقوم على البذل والعطاء في سبيل من نحب.

تأتي في مستهل الرواية هذه العتبة النصية "أنا سانغيام وقصتي غريبة جدا"، (سماعيل، 2019، صفحة 15) فكما أشرنا سابقا أن الآخر يظهر من خلال الاسم سانغيام، المخالف للأسماء العربية، ثم نقرأ "قصتي غريبة جدا" فتتداعى في الذهن مجموعة من التخمينات والتأويلات لمعرفة ما وراءها الآخر؟ ما حكايته؟ ولم قصته غريبة؟ أترى هل كون الآخر آخر يجعله غريبا؟، أم أن قصته الغريبة هي التي جعلته غريبا؟ الحقيقة يبدو أن اجتماع هذان المكونان -الآخر وقصته الغريبة- يشكلان خطابا ينم عن آخر مختلف عنا سواء من ناحية اختلاف الانتماء والعرق والدين، أو من ناحية قصته الغريبة وغير المألوفة، التي تزيد في حدة الاختلاف والتباين مع الأنا.

2.2. الآخر الفيتنامي البوذي:

يعتبر الدين مكونا رئيسيا من مكونات الذات، وهو من أقوى الانتماءات في بنية المشاعر الاجتماعية، وذلك لأنه مرتبط بكل أمور الحياة الدنيا والآخرة، فضلا على أنه متأصل في الطبيعة الإنسانية، وهو ما يجعلهم يختلفون عن بقية المخلوقات الأخرى، وبالتالي الوعي بأنفسهم كموجودات منتهية في عالم غير منته، ولعل قبول الآخر الديني أصعب منه في المجالات الأخرى. (حنا، 1998، صفحة 27)

ولقد جاء الحديث في النص عن الدين بشكل مفصل عن عائلة سانغيام البوذية المانهانية، إحدى الطوائف البوذية، تمارس مختلف الطقوس والشعائر الدينية، تسعى للاستتارة والتدريب على التأمل، في سبيل بلوغ النيرفانا، والتخلص من كل تعلق بالماديات المقيّنة التي ضيعت النفوس، وفي حديث سانغيام عن ديانتها البوذية أشارت إلى

القواسم المشتركة بين الديانات، التي انبثقت من أصل واحد رغم اختلاف معتقداتها ورؤاها. تقول: "ولعل ذلك ما يدعو إليه الإسلام أيضا وكل الديانات الأخرى" (سماعيل، 2019، صفحة 19)

لعل هاته إحدى الإشارات التي يرسلها الكاتب في محاولة منه إلى تخفيف بؤر التوتر بين الهويات المختلفة ثقافيا وحضاريا، ومد جسور التواصل مع الآخر. يستفيض المؤلف في نقل مختلف الحقائق عن الديانة البوذية عبر صوت "سانغيام" فيحدثنا عن مبدأ الشفقة "الذي يتميزون به، فسعادتهم تكمن في مساعدة الآخرين، فمثلا شخصية غوتاما في الرواية تجسد بحق الشخصية البوذية، هذا الفتى الذي تعلقت به سانغيام في مراهقتها. تطالعا سانغيام على مدى تفاني هذا الأخير في تحقيق تعاليم بوذا وتجسيد مبدأ الشفقة. فحينما لدغته أفعى أبى أن يقتلها، بل عبر عن سعادته في مساعدتها على إخراج سمها والعيش على طبيعتها، ما هو متعارف عليه أن الأفعى كائن خطير وسام يفترض قتله وهذا هو الأصل، فالإنسان يحمي نفسه من كل ما قد يعرضه للتهلكة، فالأغلب أن هذا التصرف شيء غريب حقا، إذ يتنافى مع عقيدتنا وتفكيرنا وكذا الفطرة الإنسانية.

إن هذا الموقف يساهم في إبراز الفوارق بين الأنا والآخر لكن هذا لا يعني أن الأخير مغاير ومخالف دائما، إذ نطالع في الرواية قصة أخرى لغوتاما مع المرأة العجوز التي كان يحملها كل يوم على ظهره كي تصلي في الدير، ثم يقوم بإعادتها إلى المنزل، فلما ماتت حزن عليها حزنا شديدا. يذكرنا هذا بقصة الصحابي الجليل أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان يأتي على بيت عجوز مسنة عمياء كل صباح، فيكنس بيتها، ومن ثم يعد لها الطعام ويحلب شياها ثم ينصرف. فواضح أن الكاتب تعمد توظيف التراث الإسلامي واستحضاره، ليخفف من الفوارق ويعزز الصورة الإيجابية للآخر، ويجسد الأخلاق السامية التي يتصف بها كل من الإسلام والبوذية.

وفي سياق آخر نجد الروائي ينسج مشهدا آخر يمثل خصوصية الآخر، ويبرز هويته الدينية في ممارسة أحد طقوس الدفن البوذية. إذ لما توفي والد غوتاما قام هذا الأخير بتقطيع الجثة إلى أجزاء ثم قدمها للنسور في أعالي الجبال، هذا الطقس الذي يعتبره البوذيون تكريسا لمبدأ الشفقة على جميع المخلوقات. فكان أولى لهذه الجثة الاستفادة منها وتقديمها للطيور خير من دفنها في التراب، إضافة إلى اعتقاد البوذيين أن الجثة سينقلها النسور إلى أسرى المقامات.

نتقارب الرؤى والقيم بين الأنا والآخر، فتوحدهم مقولة أن الدين المعاملة. فالشفقة والرحمة عند أتباع البوذية صفة لازمة للدين الإسلامي، وهي من صفات الخالق عز وجل، ونادى الإسلام بالرحمة على جميع المخلوقات. غير أن المفارقة في هاته الصورة أنها جاءت مناقضة للإسلام فأكرام الميت في الإسلام هو دفنه. إن التقارب في

المبادئ والقيم يثبت أن أصل الديانات واحد، غير أن أغلبها تعرضت للتحريف وهذا ما يفسر اختلاف الشعائر والطقوس بينها.

أتاحت الرواية عن طريق صوت سانغيام معايشة الديانة البوذية ومعرفة قيمها الرفيعة التي تتبر طريق الشخصيات لتتسج على هديها علاقتها بالآخر، فالكاتب يعزز الصورة الإيجابية للآخر ليؤكد أن الدين المعاملة بذلك لا يبدو هذا الآخر نقيضا لأننا على الصعيد الديني الروحي. إنما نظير له في الإنسانية فكما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "الناس صنفان: إما نظير لك في الخلق أو في الدين". (عبد، 2018، صفحة 84)

3.2. الآخر الفيتنامي الهندوسي:

حرص الكاتب على تقديم العلاقة الإيجابية بين إدريس المسلم وسانغيام البوذية، فرصد هذه العلاقة المبنية على التعايش والاحترام، ولم يقتصر الأمر على هذين الأخيرين، بل تجاوزه إلى رصد العلاقة بين الاثنيات الأخرى. فكان من ذلك أن حدثنا عن أفاتار. شاب هندوسي من مدينة سايجون الفيتنامية. أبوه هندوسي تزوج من امرأة شقراء مسيحية فرنسية تدعى فرنسواز ابنة الملحق العسكري ميشال لوري، رفض الجميع زواجهما سواء من جهة الأب أو الأم، لذا قررا الهرب وتزوجا بعيدا ثم أنجبا.

صور الكاتب العلاقة المتوترة بين الجبهات المتعارضة دينيا وثقافيا فكما برز الدين في الواجهة إلا وشد الخناق على العلاقات - وهذا ما سيحدث لأفاتار الذي تربى هندوسيا أبا عن جد. يخبرنا الكاتب عن عادة فيتنامية قديمة يمارسها الفيتناميون وهي البحث عن شريكة الحياة في أسواق الحب في الأماكن الجبلية، تكون خاصة بين الاثنيات القليلة، ارتحل أفاتار في سبيل هذا الأمر غير أنه لم يجد نفعا معه إلى أن يلتقي بنورا صديقة سانغيام فيقع في حبها، تتطور العلاقة بين أفاتار ونورا لتتكلل بالزواج والهروب معا إلى الجزائر مع سانغيام. بعد الصدمات التي لاقاها الطرفان ممن يمثلون القطب الرفض لهاته العلاقة. غير أن هذا لم يمنع من وجود طرف مسالم متقبل للآخر، فقد استقبل الراهب "سوار" أفاتار في دير آ، رغم كونه هندوسيا وقرر الدفاع عنه لما تعرض له أحد البوذيين، باعتباره ضيفا له وهو على ذمته. لكون البوذيين يكرسون مبدأ الشفقة في تعاملاتهم مع البوذي ومع غيره. ما يلاحظ أن الكاتب يسعى إلى رصد العلاقة بين الأقطاب المختلفة عبر آلية الرغبة والاندماج بعيدا عن الرفض والانغلاق، إلا ما جاء من أطراف بعيدة. أما فيما يتعلق بالعوادات المذكورة فإن توظيفها كان مقصودا، وقد نجح الكاتب في ذلك، إذ ساهم في إبراز الملامح المشكلة لثقافة الآخر والمميزة له عن غيره. بحيث أنها تعبر عن واقع الشعوب وعن كينونتها وتاريخها وهويتها وحضارتها.

4.2. المكان في علاقته بالآخر:

يعد المكان عاملاً جوهرياً في تشكل الوعي، ويسهم في إبراز الأنا عن الآخر في إطار الاختلاف المكاني، فلو تأملنا فضاء الآخر في الرواية لوجدناه مغايراً لفضاء الأنا في محاولة من الكاتب تأكيد الصورة الانتمائية للوطن في أبعادها التاريخية والحضارية وحتى الجغرافية. فقد أتاحت لنا الرواية معايشة واقع الآخر وإعطاء صورة مفصلة عنه. وجاءت تسمية الأماكن بمسمياتها "بافي هطاي، هانوي، الفيتنام" لإضفاء الصبغة الواقعية في الرواية.

يطالعنا الكاتب عبر شخصية "سانغيام" عن جمال وطنها وسحره، حيث الطبيعة الخلابة وجمال الريف الفيتنامي، في قرية بافي هطاي المتاخمة لخليج تونكين شمال هانوي عاصمة شبه جزيرة الهند الصينية، تعيش سانغيام مع والديها في هذه القرية. بعيداً عنها بميل واحد توجد المزرعة المخصصة لزراعة الأرز والشاي والقطن وتربية الخنازير والأبقار والأغنام، يسهب المؤلف في وصف واقع الآخر، لينقل بأنم معنى الكلمة جمال وطن الآخر وعاداته وثقافته وفكره. فنلاحظ من خلال الوصف السابق علاقة تلازمية بين المكان وهو الوطن وبين الشخصية، استحضرت فيها المؤلف الآخر عبر مجموعة من الرموز كالخليج وزراعة الأرز والشاي والقطن وتربية الخنازير، بمجرد قراءتها تتداعى في ذهن مباشرة أنماط الثقافة الآسيوية وما يميزها عن غيرها. كما تشكل علامة فارقة في المجتمع الآسيوي. كما يظهر الوطن في الرواية معادلاً للجمال والحرية، ومسرح للتأمل في حقائق الوجود بحثاً عن الصفاء الروحي والسلام الداخلي الذي يسعى البوذيون لتحقيقه،

لذا يبدو الوطن كمبعث للحياة وأفراح الطفولة ومغامرات المراهقة لهذا فالوطن يبقى ملازماً لمخيلة سانغيام لا يفارقها، أما الغربة فتبدو مكاناً للشيخوخة والموت نطالع قولها: "أنا الآن عجوز تكوم ظهرها تحت ثقل السنين... أتعبها الجري خلف الحياة وخلف الحب، وحفرت ذكريات الغربة على جبهتها تجاعيد. مر الأمر سريعاً جداً، وكأنني لم أكن تلك الطفلة الصغيرة المفنونة برائحة الأزهار ومطاردة الفراشات في حقول الأرز والشاي وبين جداول الماء المنتشرة في الإقليم". (سماعيل، 2019، صفحة 18)

هكذا يتجلى الوطن جزءاً من تعريف الآخر وامتداداً له، محملاً بدلالات فكرية، فالمكان يؤثر في كيان الشخصية ويعكس حقيقتها النفسية، والتأثيرات التي يحدثها المكان فيها تجعل بعض الجماعات تتسم بطابع خاص مختلف عن جماعة تسكن منطقة أخرى، والمكان ينعكس سلباً على الإنسان ووجوده. ويؤثر على طباعه وسجيته. بذاته.

استطاع الروائي أن يختار المكان بدقة في الرواية ويستفيض في وصفه انطلاقاً من مجموعة من المكونات، ويحولها إلى رموز ودلالات تحيل إلى الآخر

3. التعايش بين الأنا والآخر ومد جسور التواصل بينهما:

1.3. لغة الحب سبيل للتواصل بين الأنا والآخر:

يأتي الفصل الثاني من الرواية المعنون: "باب المغاربة" الذي يعتبر معلما تاريخيا من معالم العصر الحديث لدولتي الفيتنام والمغرب. تم بناؤه ما بين سنة 1956 إلى غاية 1960، له دلالة تاريخية ورمزية وسلمية يقع هذا الباب في قرية بافي هطاي شمال العاصمة هانوي الفيتنامية.

تطالعنا الرواية في هذا الفصل على الطرف الثاني من القصة ألا وهو الأنا الجزائري المتمثل في شخصية "إدريس". هذا الأخير الذي جندته فرنسا في صفوفها ليقاثل في تلك الحرب القذرة ضد الفيتناميين، يصور لنا الكاتب حياة إدريس قبل أن يلتقي بسانغيام، إذ كانت بلا معنى. يعيش راعيا عند عمه، نشأ في فقر وحرمان بعد وفاة أبيه وجدته، مسلوب الإرادة والحرية، يتحكم الآخرون في مصيره، في ظل الاحتلال الفرنسي. نرى بوضوح كيف تتجلى لغة المعاناة والقهر والتهميش - في هاته الألفاظ: "راعيا، جنديا بائسا، برائين الظلام - وتعري عن واقع أليم عاشه الجزائريون إبان الحقبة الاستعمارية.

تأتي نقطة التحول في القصة بعدما تعرف إدريس على سانغيام في حرب فرنسا والهند الصينية، قصة الرجل الجزائري المسلم العربي الأمازيغي والمرأة الفيتنامية البوذية، التي وحدث بين شعبين متنافرين تاريخيا وحضاريا وحتى جغرافيا، أثمر هذا اللقاء والتعارف عن زواج إدريس بسانغيام في علاقة فريدة مجسدة لغة التسامح والحوار الحضاري، " العلاقة التي أوثق رباطها الحب والإخلاص والعطاء دون مقابل.

والحقيقة أن العلاقة المبنية على الحب بين الأنا والآخر تجعل " الإنسان أكثر رهافة وعطاء، ليستطيع أن يبعد نفسه عن شبح الأحكام المطلقة التي تسيء إلى الآخر وتنزه الذات، وبذلك يكون الحكم على الناس بشخصهم وليس نماذج أو عرق" (حمود، 2013، صفحة 85) وهذا ما يؤكد إدريس بقوله "أريد تعليمهم درسا في الحب والإخلاص لم يعرفوه من قبل. سأخبرهم بأنني ولدت فقط حينما التقيت بها. سأخبرهم أن عليهم أن يغيروا تاريخ ميلادي، أن يجعلوه موافقا لذلك اليوم، لتلك الحرب، لتلك المعركة التي خرج فيها الفرنسيون منكسي الرؤوس، وخرجت أنا الراح الوحيد فقط لأنها جعلتني أتعرف على أغلى امرأة في الوجود، (سماعيل، 2019، صفحة 85) فرغم قسوة الحرب وفظاعتها إلا أنها ساقطت له أجمل الأقدار.

في مشهد آخر يطرح الكاتب قضية اللغة باعتبارها أحد مكونات الهوية، والاختلاف في الوقت ذاته، هي التي اعتبر الكاتب لغة الكلام العادية غير ضرورية في سبيل التواصل مع الآخر وفهم تفكيره، ولن تقف عائقا في سبيل اللقاء بمن نحب، فكانت لغة التواصل المشتركة في البداية بين إدريس وسانغيام هي الفرنسية لغة المستعمر

إلا أنهما لم يكونا بحاجة، فلغة عيون المحب أبلغ في إيصال مراد النفوس من لغة الكلام العادية، وهذا ما عبر عنه إدريس بقوله "عيوننا كانت تتحدث، وكنا نحسن جيدا ترجمة تلك النظرات" (سماعيل، 2019، صفحة 71) فكما قيل العيون مرايا الروح، تنعكس فيها مشاعر الحب والحزن والأمل والألم والطموح، هي جواز سفر لكل الجوارح التي تتغلغل في مكنوناتنا.

طرح الفيلسوف الفرنسي "بول ريكور" إشكالية انفتاح الذات على الآخر، وقد جاء هذا الطرح في إحدى مؤلفاته "بعد طول تأمل" حيث قال فيه إن الذات تتعرف على نفسها من خلال الانفتاح على الآخر "وذلك لأن هذا الانفتاح سوف يعطي للذات فهما وتوصلا وفاعلية، بل إن الآخر هو من يكملها. (ريكور، 2006، صفحة 11) يظهر انفتاح الأنا على الآخر في الرواية في إقرار إدريس بمدى ما تعلمه من الآخر، وما اكتسبه من خبرة ومعرفته لكثير من العادات الأمازيغية المشتركة بين المغرب والجزائر، فرغم تقارب البلدين وتجاورهما إلا أن انغلاق كل بلد على نفسه يعمق جهل كل طرف بالآخر.

كما مكنت الرحلة إدريس من اكتشاف عالم آخر، عالم الطبيعة البحرية الذي لم يعهده في موطنه ذو الطبيعة الصحراوية وما تحمله هذه المفردة من مدلولات سلبية ترسبت في الذاكرة الجمعية "قفار بحيث لا يوجد فيها لا ماء ولا شجر، حرارة مرتفعة، خلاء رهيب يستثني وجود الحشرات السامة" كل هذا يبرز مدى الفارق الشاسع بين الأنا والآخر، فالطبيعة الجغرافية لها أثرها في تكوين الشخصية وفي كيفية تفاعلها مع الآخر.

تعدى انفتاح الأنا الفضاء المكاني إلى سماع أخبار العالم كالحربين العالميتين الأولى والثانية، وأما على الصعيد الحربي فإن إدريس يقر ويعترف بأن هذا التجنيد كان لصالح الجزائريين وكل جنود شمال إفريقيا، لأنهم اكتسبوا الثقة التي ساعدتهم في حرب التحرير بعدها. هنا تبرز أهمية الانفتاح على الآخر، فالشيء الذي أفنقده أنا قد يملكه الآخر، الثقة التي افنقدها الجزائريون في أنفسهم وجودها عند الفيتناميين، مما ساعدهم على محاربة فرنسا التي سقطت أمام بنادق الفيتناميين.

تظهر الرواية كيف أن الانفتاح على الآخر مكن إدريس من الخروج من دائرته الضيقة ومن عزلته والإحباط الذي أصابه، فيعود متمسكا بالحياة خصوصا بعدما ظهرت سانغيام في حياته.

ولكي يكون الانفتاح على الآخر إيجابيا قائما على التسامح، نسج الروائي مشهدا آخر، إذ تم استغلال الأسرى المجندين في أعمال شاقة لصالح الفيتناميين، يعترف إدريس بأن هذا العمل بمثابة تكفير بسيط عن مشاركتهم في الحرب، وعربون تسامح -كما قال- بعدما كانوا يحملون السلاح في وجه بعضهم البعض. واكتمل مشهد الانفتاح والتسامح بين الأنا والآخر عبر رابطة الزواج، بين الفيتناميين والجزائريين والتونسيين والمغاربة، لم

بعد الأمر يقتصر على سانغيام وإدريس إنما شمل معظم الفيتناميات والأسرى من شمال إفريقيا، فالتقارب بين الأنا والآخر لم يتجسد إلا عبر ظلال الحب والاحترام، حتى قرر كل من الطرفين الامتزاج والغاء الخصوصية. فالتحقت بعض الفيتناميات بالمجندين في شمال إفريقيا، في حين اختار بعض الأسرى البقاء في بافي هطاي.

يظهر النقاط التاريخية والمتخيل في الرواية مما يمنحها الشرعية والمصادقية، ومدى إمكانية التقارب الحضاري في ظل الاختلافات القائمة بين الأديان والايديولوجيات والاثنيات، وما يجري على مسرح الأحداث العالمية من حروب وصراعات وتصادم الأزمات وظهور خطابات تجسد الصراع القائم على شاكلة الصراع الحضاري ونهاية التاريخ وغيرها.

إن العلاقة بين الأنا والآخر تختلف باختلاف الأحداث والظروف التي يملئها الواقع عليها، وتخضع طبيعة هذه العلاقة لهدف وانتماء كل منهما وغالبا ما تكون علاقة تعارض واختلاف، غير أن علاقة إدريس وسانغيام خالفت كل التوقعات. إذ كانا متفاهمين في كثير من المواقف بالرغم من الاختلاف الصارخ بينهما في الدين واللغة والانتماء وتوجت العلاقة بالزواج الإسلامي.

تركت سانغيام كل شيء خلفها لتلتحق بإدريس، تركت مزرعة والدها ودير آ وحية الرهبنة البوذية واعتنقت الإسلام من أجل من تحب، لعلنا نجد في هذا تماهيا في الآخر لدرجة أن الآخر يتخلى عن دينه وأرضه وعاداته في سبيل الحب، لتلتحم به وكان من عجب أهل قصر أغرم قرية إدريس-مالا يمكن تصديقه في أن تتعود على هذه البيئة الجديدة. تلك الآسيوية التي لا تشبههم لا في لونهم ولا شكلهم ولا لغتهم ولا دينهم وحتى جغرافيتهم، والأدهى من هذا تفرد الآسيويين بشكل عيونهم مما يجعلهم أكثر اختلافا وتباينا عن الآخرين، كل هذا سيقف عائقا كبيرا في وجه سانغيام، وحُق لأهل القرية أن يتعجبوا يقول السارد على لسان إدريس "قال بعضهم حينها أنها لن تستطيع التأقلم مع حياة القصر، لن تتغلب على البرودة القاسية، وعلى طبيعة الصحراء الجافة وطباع الناس، لن تستطيع الذهاب للحقل، لن تستطيع أن ترعى الأغنام والأبقار. لن تستطيع أن تجلب الحطب كل مرة لليلي الشتاء شديدة البرودة، ثم سرعان ما ذهب ت تخميناتهم كلها مهب الرياح. (سماعيل، 2019، صفحة 82)

يشكل الفضاء المكاني بكل صوره نوعا من الدلالة السلبية التي ينأى أي شخص عنها، فاستحضار الكاتب لهاته الألفاظ "الصحراء الجافة، البرودة القاسية، جلب الحطب" توحى بالفقر وانعدام الحياة، فتبعد أي أمل ورغبة في العيش فيها، خصوصا إذا ما تعلق الأمر بشخص يعيش في بيئة مغايرة كليا لتلك البيئة التي توحى بصعوبة الاندماج والتعايش مع الآخر. غير أن الروائي يخبرنا بعكس ذلك تماما فسانغيام تغلبت على هذا الأمر وتجاوزته،

وبرهنت مقدرتها على التكيف والتأقلم مع الآخر المختلف، واستطاعت أن تجد في هذا المكان الحب الذي ينشده قلبها.

2.3. عيد التيت ويناير رأس السنة الأمازيغية:

يبدع الكاتب في رسم صورة سانغيام من خلال احتفالها برأس السنة الأمازيغية، وفيه تطرق إلى أحد العناصر الأساسية المكونة للهوية الأمازيغية، وهو اللباس التقليدي الأمازيغي الذي ارتدته سانغيام للاحتفال، فاللباس التقليدي يحمل في طياته تاريخا وتراثا يعكس تقرد المجتمع وتميز ثقافته يقول إدريس " كانت هي أنيقة جدا في لباسها التقليدي الأمازيغي المزركش بالألوان الخضراء والحمراء والبرتقالية والزرقاء الفاتحة"، (سماعيل، 2019، صفحة 82) والألوان هنا ترمز للطبيعة والأرض التي يعبر الأمازيغ عن شكرهم لها على ما تنعم عليهم خلال هذا الاحتفال، كما أشار الكاتب إلى رمز آخر من رموز الهوية والثقافة الأمازيغية وهي الحناء التي كانت تفوح من على يديها. فالتخضب بالحناء أمر يحضر كثيرا في الاحتفالات والمناسبات السعيدة عند الأمازيغ، يرتبط هذا الطقس بمعتقدات شعبية من ذلك أن الحناء تقذف في قلب المرأة الحنان والعطف. لم يفت الكاتب أن يذكر مكونات أخرى محددة للهوية الثقافية الأمازيغية مثل المسواك الذي يفوح من فم سانغيام.

نلاحظ عناية الروائي الفائقة في اختيار الملامح المحددة لهوية الأنا الجزائري، وكيف جعل الآخر يتعايش معها. لا بل كيف يتفاعل معها فيجعلها بديلا لهويته السابقة، ونلاحظ مقدرة الروائي في ربط احتفال رأس السنة الأمازيغية الخاص في الجزائر بالاحتفال بعيد التيت الفيتنامي الآسيوي. هذا الربط يمكن من تقريب مسافة الاختلاف ويسهل تمديد جسور التواصل بين الطرفين. فالاحتفال بعيد التيت يكون بقدوم الربيع وذلك تبعا للتقويم الفيتنامي، أما ييناير فهو احتفال برأس السنة الأمازيغية، وكلا الاحتفالين يسهران على استعراض أهم العادات والطقوس الممارسة في الأيام المخصصة له من إعداد مختلف المأكولات الشهية التقليدية، أو لباس زي معين مع تواجد الموسيقى والرقص والأهازيج الشعبية.

وكما أشرنا أن هذا التقاطع بين الثقافتين الآسيوية والأمازيغية والشبه بين الأعياد والاحتفالات يبرز إمكانية التعايش بين الحضارات المختلفة في ظل الشبه والتقارب بينهما في جوانب عدة. وطبعا إن احتفال سانغيام بييناير لم يمنعها من نسيان عيدها، بل أضافت لمستها الخاصة بثقافتها الآسيوية بتزيين المنزل بمختلف الورود والأزهار، "فكانها كانت في جمعها بين طقوس ييناير وطقوس التيت، تجمع بين شعبين جمعتهم الحرب، وجمعهما النضال المسلح ضد الاستعمار الفرنسي، وكان حبنا وزوجنا وكل ذلك التناغم والانسجام كان عينة صغيرة عن تمازج وحب وتكاتف الشعبين". (سماعيل، 2019، صفحة 84)

من جانب آخر يصور لنا الكاتب كيف تعايشت سانغيام مع الدين، وانسجمت بسرعة مع حياة القصر وكل ما هو جديد عليها، رغم ما شاع في ذلك من أقاويل في عدم مقدرتها على ذلك، لهذا نجدها قد تعلمت اللهجة الجزائرية القريبة من العربية والأمازيغية، وصارت تبحث في الإسلام لتعرف عنه أكثر مقيمة جميع شعائره، والأكثر من هذا أنها ستؤدي فريضة الحج فقد كان اسمها في أول القائمة، إن تعلم سانغيام كل ما يكسبها هوية جديدة سواء من ناحية اللغة أو من ناحية الدين يفصح عن رغبتها في الاندماج في الآخر والتفاعل معه. فنداؤها لزوجها إدريس "بالحاج" حتى قبل زواجهما للحج يكشف عن مدى استيعابها لثقافة الآخر، لأنه في الأصل لا ينادى بهذا الاسم إلا من أدى فريضة الحج، غير أن استعماله في كلامنا المعتاد يأتي من باب احترام وتقدير الكبير سنا، كما أن المناداة بهذا الاسم -الحاج- يجسد أمل ورغبة سانغيام في أن يصير هذا الأمر واقعا، لأنه كما يقال "القدر موكل بالمنطق".

لم يرسم الكاتب حياة مثالية مطلقة بين سانغيام وإدريس رغم التفاعل والاندماج الكبير بينهما، الذي يصل إلى حد تماهي الآخر الآسيوي في الأنا الجزائري، فإنهما سيعانيان وإن لم تكن معاناتهما وليدة أنفسهما، بل من المجتمع الذي يعيشان فيه. لكن رغم ما اعترضهما من صعوبات إلا أنهما ظل شامخين، وفي هذا الصمود شبه إدريس بالملك الأمازيغي "كسيلة" وسانغيام بزوجته التي خلفته، القائدة البربرية الشامخة "الكاينة". قمة التماهي والاندماج في هذا التشبيه، فلم تعد سانغيام جزءا من المجتمع الأمازيغي فحسب، بل أصبحت أحد رموز أبطال الأمازيغ وملوكها.

3.3. حوارية التفاعل بين الأنا والآخر في الرواية:

لقد بدا الكاتب معنيا بتقديم العلاقة الإيجابية بين الأنا والآخر انطلاقا من ذكورة وأنوثة -وهي السمة العامة في الرواية - . لكن هذا لا يعني أن الرجل يغزو بفحولته الآخر المجسد في المرأة، بل هي علاقة سليمة مبنية دائما على الحب والاحترام بين الطرفين، لكن ما يؤخذ على الكاتب هو تجسيد العلاقة المثالية في كل حالة من الحالات السابقة التي تعرض فيها للعلاقة بين الأنا والآخر، من دون ذكر أي عوائق بين الطرفين إلا ما كان من الأطراف البعيدة من أهل القرية المعارضين لإدريس بسبب مخالفته لهم في بعض الشؤون المتعلقة بالقرية. أما وأن يتناول الكاتب عوائق بين الأنا والآخر كصعوبة التأقلم والاندماج، خصوصا وأن الفرق شاسع بين الحضارة التبتية الآسيوية والحضارة الأمازيغية وكذا الطبيعة الجغرافية المميزة لكل منهما.

والملاحظ أن الروائي لم يقصر الاختلاف بين الأنا الجزائري المسلم والآخر الآسيوي البوذي، إذ تعددت صوره. فنجد البوذي والهندوسي والمسيحي والمسلم، كل وتوجهاته ومعتقداته، لكن لما تطفو لغة الحب تزيل جميع العوائق وتذيب كل الفوارق بين الأنا والآخر، بالتالي فإن العلاقة بين الأنا والآخر لم تعالج ضمن التجنيس

الحضاري، كما رصدت الرواية مسارا مشتركا لعدة شخصيات، قوامه التفاعل والحوار رغم الاختلافات التي تميزهم عرقيا ودينيا وثقافيا وانتماء حضاريا وجغرافيا، "وهي اختلافات غذت الانفصال، لكنها خلقت الاتصال وكرسته ومنحته سمة خاصة ونوعية" (فايد، 2016، الصفحات 136-137) فجملت البوذي والهندوسي والمسلم والمسيحي في فسيفساء كرست مبدا الحوار الحضاري، عبر لغة الحب التي جسدت حوارا مدهشا بين الأنا والآخر مهما اختلفت رؤاهم.

ثم إن العلاقة بين الأنا والآخر لم تتخذ طابع الاستعلاء والمواجهة الحضارية، بل قامت على علاقة ندية متكافئة متقاربة حضاريا، فكل من الأنا والآخر تعرض للاستعمار الفرنسي ولقهره، وكل منهما يحمل قيما إنسانية متقاربة كالشفقة والرحمة التي هي من صميم ديننا الإسلامي وتتجلى هذه القيم في البوذية، كما أن التاريخ لم يسجل صراعا بين البلدان الآسيوية والشعوب العربية المسلمة، ونستثني الاضطهاد الذي يعانيه المسلمون في بورما حاليا من طرف الهندوس

4. خاتمة:

وآخر ما نقف عنده في نهاية هذا البحث هذه النتائج الآتية:

✓ إن رواية "الرفيقة سانغيام" شكلت نصا يعقد الصلة بين الأنا والآخر، وتكمن خصوصيته في أن الآخر لم يكن ذلك الأوروبي المعهود في الرواية العربية والاستعماري التقني المتفوق الذي ظل يصطدم حضاريا بالأنا العربية المأزومة، بل برز كآخر جديد وهو الآخر الآسيوي الذي نسج جسور التواصل بينه وبين الأنا ضمن علاقة ندية متكافئة وهذا ما يساهم في خلق حوار حضاري بمعناه الحقيقي.

✓ إن العلاقة الندية المتكافئة بين الأنا سواء الجزائري أو العربي والآخر الآسيوي راجعة أساسا إلى القواسم المشتركة بينهما، كالتعرض للاستعمار ومحاولة التحرر منه، إضافة إلى أن بلدان آسيا لم تمارس هيمنة استعمارية في تاريخها على البلدان العربية.

✓ حملت الرواية بدءا من العنوان رسالة الانفتاح على الآخر، فعايشنا حوارا مدهشا بين الأنا الجزائري والآخر الآسيوي البوذي، ولم يقصره الكاتب الحوار الحضاري على الأنا المسلم والآخر البوذي، بل جسده مع المسيحي والهندوسي وكذا مع البوذي والهندوسي وفي كل مرة نرى تناغم الأنا مع الآخر، ولم تقتصر تجربة الاحتكاك الحضاري على أحد الفضاءين الأنا أو الآخر، بل جمعتهما معا مما سمح بالانفتاح الأوفر على كل طرف، ومعرفته عن كثر والتفاعل معه في علاقة متبادلة أخذ وعطاء.

✓ لعل أهم رسالة قدمتها الرواية هي التعريف بأعماق الآخر الآسيوي بكل مكوناته ووجدانه وخصوصيته الثقافية والحضارية للتأكيد على أنه نظير لنا في الإنسانية، ومحو أي فكرة استعلائية أو رسم صورة مشوهة تمثل الآخر. لذلك اهتم الكاتب بتجسيد القيم والمبادئ الإنسانية المشتركة بين الأنا والآخر.

✓ تعد الرواية إضافة في مجال الأدب ما بعد الكولونيالي، استطاعت أن تنقلنا إلى عالم الآخر لتتعرف بعمق عن ثقافته وحضارته، ونأخذ صورة إيجابية عنه، رغم اختلافه لتكون البداية كما قال الدكتور ميلاد حنا هي قبول الآخر وصولاً إلى حب الآخر.

5. قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم مصطفى. (1989). المعجم الوسيط. اسطنبول، تركيا: دار الدعوة.
2. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري. (2010). لسان العرب. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
3. الزبيدي محمد بن محمد عبدالرزاق الحسيني. (1972). تاج العروس من جواهر القاموس. الكويت: مطبعة حكومة الكويت.
4. بول ريكور. (2006). بعد طول تأمل. بيروت: دار العربية للعلوم.
5. سمير الخليل. (2016). دليل المصطلحات الثقافية والنقد الثقافي (الإصدار 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
6. صالح بن عويد الحربي. (1441هـ). دراسات صورة الآخر في الأدب العربي وأثر إدوارد سعيد: دراسة مقارنة. مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية (20).
7. علي الشدودي. (سبتمبر، 2008). الآخر في الرواية السعودية، طرق للرؤية. مجلة الرواي (19).
8. ماجدة حمود. (مارس، 2013). إشكالية الأنا والآخر، نماذج روائية عربية. عالم المعرفة.
9. محمد سماعيل. (2019). الرفيقة سانغيام (الإصدار 1). الجزائر: دار ميم للنشر.
10. محمد عبده. (2018). نهج البلاغة (المجلد 3). بيروت: دارالمعرفة.
11. محمد فايد. (جوان، 2016). الأنا والآخر في الرواية الجزائرية قراءة في رواية كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك لعمارة لخص. مجلة أفاق علمية.
12. مصلح النجار. (2008). الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية (الإصدار 1). عمان، الأردن: الجمعية الأردنية للبحث العلمي.
13. ميلاد حنا. (1998). قبول الآخر فكر واقتناع وممارسة، الطبعة الطبعة (الإصدار 1). الأردن: دار الشروق.